النكات

على كتاب التوحيد

المسمى

قرة عيون الموحدين

القسم الثاني

أبواب شرك الأسباب

{إياك نستعين}

1- الأسباب الباطلة: [باب من الشرك لبس الحلقة والخيط]
2- الأسباب الصحيحة: [باب/ ما جاء في الرقى والتمائم].
3- الأسباب المشتركة: [باب/ من تبرك بشجرة أو حجر أو نحوهما].

قاعدة الأسباب: إعلم عصمك الله أن الشرك يدخل على الناس من أحد بابين (التعبد) و (التسبب) :-

1- فالتعبد: بصرف قول -كالدعاء- أو فعل -كالذبح- لغير الله، وهو إخلال بـ[توحيد الألوهية].
2- والتسبب: هو التعلق بغير الله أو نسبة الأشياء إلى غير مسبباتها ومناقضة نظام القدر، وهو إخلال بـ[توحيد الربوبية].

ويجمع ذلك كله قوله تعالى {إياك نعبد وإياك نستعين}.

والمصنف رحمه الله قدم الكلام على "شرك الأسباب" لعموم البلوى به ووقوع كثير من الناس فيه وهم لا يشعرون.

وأبواب شرك الأسباب تدور على موازين ثلاثة:-

-
- **/ الميزان القدري:** وفيه مراتب ثلاثة (اليقين) و (الشك) و (البطلان).
- **الثاني/ الميزان القلبي:** وفيه مراتب أربعة (الغفلة) و (الإلتفات) و (التعلق) و (التنديد).
- **الثالث/ الميزان الشرعي:** وهو مرات أربعة (نقص الأدب) و (البدعة) و (الشرك الأصغر) و (الشرك الأكبر).

الميزان القلبي/ وهو الذي يُنظر فيه إلى إعتقاد العبد وعمل قلبه في كل باب من أبواب شرك الأسباب:

1- **فالغافل:** يعلم أن الله هو المانع المعطي النافع الضار، ولكنه يغفل عن ذلك أحيانا فيأخذ بالأسباب الضعيفة السببية أو نحو ذلك من نقص الأدب، وهذا يُنقص كمال التوحيد (الإحسان) .
2- **الملتفت:** الذي يأخذ بالأسباب الصحيحة ولكن قلبه يتعلق بها فيعتمد عليها وينسى المسبب، وهذا يَنقض كمال التوحيد (الإحسان).
3- **المتعلق:** وهو الذي يأخذ بالأسباب الباطلة شرعا وقدرا -البدع والشرك الأصغر-، وهذا يُنقص أو ينقض مرتبة (الإيمان).
4- **المندد:** الذي يغلوا في السبب فيجعله مؤثرا بذاته -ربا- أو يصرف له العبادة فيتخذه إلها، وهذا ينقض أصل التوحيد (الإسلام).

الميزان القدري/ وهو الذي يُنظر به لذات المسألة من جهة درجتها في سنن الله التي أجراها في خلقه وقدرها لكونه:-

1- **الأسباب اليقينية:** وهذه الأخذ بها واجب وهي من كمال التوحيد لأنها من الإيمان بالقدر فتركها نقص في التوحيد قال إبن القيم [القيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية وهي حق الله على العبد] "مدارج السالكين"، وفي الحديث [إحرص على ما ينفعك، وإستعن بالله، ولا تعجز] **(1)**.
2- **الأسباب المشكوكة:** التي لم تثبت سببيتها شرعا ولا سننا، والأصل في الأخذ بها أنه "بدعة"، إلا أن مراتب الشك فيها تتفاوت: فما قارب اليقين منها -غلبة الظن- قارب حكمه فاستحب الأخذ به، وما قارب البطلان أعطي حكمه وصار شركا أصغرا.
3- **الأسباب الباطلة:** وهي التي يُعلم بطلانها شرعا أو قدرا، والأخذ بها شرك أكبر أو أصغر بحسبه.

الميزان الشرعي/ وهو الذي يُنظر فيه إلى درجة إخلال هذا الفعل بالتوحيد :-

1- فنقص الأدب: هو ما منع كمال تحقيق (الإحسان).
2- البدع: ما لم تصح سببيتها قدرا وهي تخل بأصل التوحيد ولا تنقضه (الإيمان)، وهي أقل مراتب الشرك الأصغر.
3- الشرك الأصغر: وهو يخل بأصل التوحيد ولا ينقضه (الإيمان)، إلا أن إخلاله بالتوحيد أشد من إخلال البدع المجردة.
4- الشرك الأكبر: وهو الذي ينقض أصل التوحيد (الإسلام).

- أمثلة :-

	تنديد	تعلق	إلتفات	غفلة
يقين	**السحر**	**تعلق القلب بالأسباب الصحيحة**		قول "لولا الله وفلان"
شك				**الكي** (جمع بين: ضعف السببية، ونقص الأدب)
بطلان	**دعاء غير الله**	**التمائم**	**دعاء الله عند قبور الصالحين**	**ترك الأسباب**
	شرك أكبر	**شرك أصغر**	**البدع**	**نقص الأدب**

1. **لطيفة:** من طريف الأسباب التي هي من كمال التوحيد (القهوة) فإنها تنشط الذهن وتقوي البدن على طاعة الله، ولذلك ألف العلماء في فضائلها والحث عليها وصارت قرينة العلم والعبادة، قال إبراهيم الدميجي [ومن مشايخ الإخوان الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن داود، شيخ الإخوان حين دخلوا مكة شرفها الله، وكان شيخا جليلا مهابا حكيما مربيا عابدا، أصابته الحمى الوبائية سنة ١٣٥٦هـ فتوفي، وكان برنامج الشيخ: أنه يقوم إذا إنتصف الليل او قبله بقليل فيتوضأ ثم يصف قدميه لصلاة الليل، وفي هذه الأثناء تكون زوجته "حسناء العايد" قد أيقظت الطلاب الذين كانوا يسكنون مع الشيخ في بيته ملازمة لشيخهم، ثم يُخرجُ لهم **القهوة** والهيل من جيبه ويتابع صلاته، والتلاميذ بين قراءة وصلاة وشيخهم قد نصب قدميه كالخشبة يصلي صلاة طويلة، ثم يُقبل عليهم فيصبون **قهوته** وهم معه، ثم يأمر إبنه محمد فيقرأ عليه من حفظه غيبا قرابة ثلاثة أجزاء، ثم يقومون إلى صلاة الفجر وبعد الصلاة يقعد في مصلاه بين ذكر وقراءة قرآن حتى إرتفاع الشمس ثم يدخل بيته قرابة النصف ساعة، ثم يجلس في بيته وقد إجتمع الناس ويقرأ عليه طلاب العلم متون العلم] "صفحات مطوية من تاريخ الجزيرة العربية: 205"، وفي ترجمة الشيخ السعدي رحمه الله [وكان حريصا على قيام الليل في مقامه وسفره، **ويتخذ الوسائل التي تعينه على القيام** فمن ذلك: الساعة المنبهة، وكانت لديه **دلة قهوة** صغيرة يقوم بتسخينها ليشرب منها بين التسليمات من أجل أن تبعث فيه النشاط ويتقوى على الصلاة] "مجموع مؤلفات السعدي: 320/1".
ثم إن القهوة شراب عربي خالص، كان إكتشافه أولا في جزيرة العرب ومنها إنتشر للعالم كله، حتى كان النصارى في مبتدأ الأمر يحرمونه ويسمونه (الشراب المحمدي)! انظر في ذلك كتاب "سفر القهوة" لعبد الكريم الشطي.

(أولا: الأسباب الباطلة "التمائم")

٦- [باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوها لرفع البلاء أو دفعه]

بنية الباب :-

ذكر المصنف رحمه الله في هذا الباب آية وأربعة أحاديث:

1 - **الآية:** هي الأصل العام وهو أن الله هو النافع الضار وأن التوكل عليه هو خلاصة التوحيد.
2 - **الحديث الأول:** أن الشرك يضر صاحبه في الدنيا والآخرة.

3 - **الحديث الثاني:** أنه لا ينفع ولا يؤول أمر صاحبه إلى خير.
4 - **الحديث الثالث:** أن التعلق بالأسباب المحرمة شرك.
5 - **الحديث الرابع:** أنه شرك أصغر.

قال الإمام محمد [توفي صلوات الله وسلامه عليه ودينه باق، لا خير إلا دل الأمة عليه ولا شر إلا حذرها منه، والخير الذي دل عليه: التوحيد وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذر منه: الشرك وجميع ما يكرهه الله ويأباه] "الأصول الثلاثة".

النكتة (1)/ التوحيد والتوكل:-

إعلم رحمك الله أن التوكل هو لب التوحيد، وحين وصف النبي صلى الله عليه وسلم الذين حققوا التوحيد وإستوفوا فضله أرجع صفاتهم كلها أليه فقال [وعلى ربهم يتوكلون]، قال الشيخ سليمان رحمه الله [الأصل اجامع الذي تتفرع عنه الأفعال والعبادات هو التوكل على الله وصدق الإلتجاء أليه والإعتماد بالقلب عليه، وهو خلاصة التفريد ونهاية تحقيق التوحيد] "تيسير العزيز الحميد".

وذلك أن التوكل هو ثمرة العلم بالله وبأسمائه وصفاته فهو التوحيد العملي ولذلك قال السلف [التوحيد علم القلب، والتوكل عمل القلب] قال تعالى {إياك نعبد وإياك نستعين}، وتفاوت الناس في التوكل سببه تفاوتهم في العلم بالله شرعا وقدرا قال إبن القيم [بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل، وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى -إلى أن قال- فمن لا توكل له لا إيمان له قال تعالى {وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين}] "مدارج السالكين".

وحقيقة التوكل: ترك إلتفات القلب لغير الله -لا ترك الأسباب- قال تعالى {إهدنا الصراط المستقيم} أي إستقامة القلب لك، وقال {فأقم وجهك للدين حنيفا} أي مستقيم القلب لله معرضا عن الإلتفات لغيره ولذا جاء في خبر إبراهيم عليه السلام مع هاجر وإبنها [وجعل لا يلتفت إليها] البخاري، وجاء في وصف الصديق رضي الله عنه [وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاة] البخاري، وحين سئل الإمام أحمد: أي شيء صدق التوكل؟ قال [أن لا يكون في قلبك أحد من الآدميين] "التوكل لإبن أبي يعلى" .. وهذا كله من كمال توحيدهم!.

أركان التوكل: التوكل إنما يحصل بثلاثة أمور:-

1- العلم بالله وبأسمائه وصفاته، وهذا مقتضى البسملة، قال يعقوب عليه السلام {وأعلم من الله مالا تعلمون}.
2- الرضى به ربا في شرعه وقدره -الذين هما ظل لأسمائه وصفاته جل وعلا-، وهذا مقتضى الحمدلة، قال عليه الصلاة والسلام [رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا].
3- الإستسلام والإنقياد له في ذلك كله: بالأخذ بأسباب شرعه وقدره، وهذا مقتضى الحسبلة، قال تعالى {واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي **الأيدي** و **الأبصار**} فأثنى عليهم بالجمع بين أسباب الشرع والقدر.
ولما كان الإيمان قول وعمل كان الإخلال بالأسباب القدرية إخلال بالعمل فهو نقص في كمال الإيمان قال عليه الصلاة والسلام [المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف]، فالأخذ بالأسباب من صميم **"التوكل"** وهو من تحقيق التوحيد وأما تركها فهو **"تواكل"** وأقل أحواله أنه (نقص أدب) مع الله وقد يصل إلى (البدعة) إن جمع إليه إعتقاد.

وقد جمع الله أركان التوكل الثلاثة في قوله {فلا وربك لا يؤمنون حتى: يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت، ويسلموا تسليما}، فالرد إلى الله ورسوله هو أثر لـ**"العلم"** به وبأسمائه وصفاته، وسكون القلب إلى حكمه القدري والشرعي هو **"الرضى"** به ربا، والإنقياد إلى أسبابه الشرعية والقدرية هو **"التسليم"**، وفي الحديث [إحرص على ما ينفعك، وإستعن بالله، ولا تعجز] ؛ فمن اجتمعت فيه الأركان الثلاثة فقد حقق التوحيد.

فائدة: أعظم التوكل هو التوكل على الله في (تحقيق التوحيد) وذلك من وجهين:

- **الأول/** أن التوحيد هو أعظم مقصود وأشرف مطلوب [والتوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه هذا توكل الرسل و الأنبياء عليهم السلام] "مدارج السالكين".
- **الثاني/** أن التوحيد هو أعظم سبب لحصول كل خير ي الدنيا والآخرة: قال إبن القيم [ما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد] "الفوائد 73"، وقال الإمام محمد [باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب].

قال إبن القيم [وكثير من الناس مغبون في توكله، وقد توكل حقيقة التزكل وهو مغبون! ، كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية إستفرغ فيها قوة توكله ويمكنه نيلها بأيسر شيء وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ونصرة الدين والتأثير في العالم خيرا، فهذا تكل العاجز القاصر الهمة] "مدارج السالكين".

النكتة (2)/ الشرك والمصلحة :-

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب في مسائل مقدمة الكتاب [العاشرة/ الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها الله بقوله: {لا تجعل مع الله إلهاً ءاخر فتقعد **مذموماً مخذولاً**}، وختمها بقولـه {ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم **ملوماً مدحوراً**}، ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله {ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة}] فبين أن الشرك سبب لشر الدنيا (مذموما مخذولا) وشر الآخرة (ملوما مدحورا)، وأن الحكمة كل الحكمة والخير كل الخير في "التوحيد" إذ هو الذي فيه مصالح العباد الدنيوية والأخروية.

قال الإمام محمد [توفي صلوات الله وسلامه عليه ودينه باق، لا خير إلا دل الأمة عليه ولا شر إلا حذرها منه، والخير الذي دل عليه: التوحيد وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذر منه: الشرك وجميع ما يكرهه الله ويأباه(2)] "الأصول الثلاثة"، قال إبن القيم [وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها وهو مبني على حرف واحد: وهو عموم رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده؛ وإنما حاجتهم إلى من يبلغهم عنه ما جاء به.

فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه من بُعث إليه في أصول الدين وفروعه.

فرسالته كافية شافية عامة، لا تحوج إلى سواها، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا؛ فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به.

وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً، وعلمهم كل شئ حتى آداب التخلي وآداب الجماع والنوم والقيام والقعود والأكل والشرب والركوب والنزول والسفر والإقامة والصمت والكلام والعزلة والخلطة والغنى والفقر والصحة والمرض وجميع أحكام الحياة والموت؛ ووصف لهم العرش والكرسي والملائكة والجن والنار والجنة ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأي عين؛ وعرَّفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله؛ وعرَّفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم؛ وعرَّفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرّفه نبي لأمته قبله؛ وعرفهم صلى الله عليه وسلم من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما لم يعرّف به نبي غيره؛ وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده اللهم إلا إلى من يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه؛ وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبداً؛ وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها وما يتحرزون به من كيده ومكره وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه؛ وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه؛ وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أمور معايشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة.

وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه؛ فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟

ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده؛ وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق الله له أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به واستغنوا به عما ما سواه وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم؛ وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يشتغل الناس به عن القرآن؛ فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزبد أفكارهم وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟! فالله المستعان؛ وقد قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، وقال تعالى {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} وقال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}] "إعلام الموقعين".

فإذا عرفت ذلك معرفة قلب فإعلم أن معارضة الشرع بالقدر هي سنة إبليس حين أمر بالسجود فرد الأمر وقال {خلقتني من نار وخلقته من طين}، فكل تعارض متوهم بين الشرع والقدر فمنشأه: سوء الفهم للشرع والقدر، او مرض القلب؛ قال تعالى {إن يتبعون إلا **الظن** وما **تهوى الأنفس** ولقد جاءهم من ربهم الهدى}.

فإن الله جل في علاه حكيم في كل ما أمر به ونهي عنه علمنا وجه ذلك أو جهلناه، وهو سبحانه خالق الخلق ومقدر الأقدر ومجري السنن، وهو إنما يشرع الشرائع وفقا لذلك قال تعالى {إن ربي على صراط مستقيم}؛ فمن عرف الشرع فقد عرف السنن ونال الحكمة، ومن عرف الواقع حق المعرفة أداه ذلك إلى الشرع ولا بد، ومن هنا روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال [وافقت ربي في ثلاث]، والخلل إنما يدخل على الإنسان جهله بالشرع أو جهله بحقيقة السنن فيتوهم التعارض ويستزله الشيطان بجهله .

تنبيه: من الجهل بالقدر الغفلة عن سنة الإستدراج، وقد روى إبن ماجة عن زينب زوجة عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما [أنَّ عبدَ اللَّهِ رأى في عُنقي خَيطًا فقالَ: ما هذا؟ فقلتُ: خَيطٌ رُقِيَ لي فيهِ قالَت: فأخذَهُ فقطعَهُ ثمَّ قالَ: أنتُم آلَ عبدَ اللَّهِ لأغنياءُ عنِ الشِّرْكِ إنَّ الرُّقى والتَّمائمَ والتِّوَلةَ شرْكٌ فقلتُ: لمَ تقولُ هَكذا؟ لقد كانت عيني تقذِفُ فكنتُ أختلفُ إلى فلانٍ اليَهوديِّ فإذا رَقاها سَكنَت فقالَ عبدُ اللَّهِ: إنَّما ذلِكِ عملُ الشَّيطانِ كانَ ينخَسُها بيدِهِ فإذا رقيَ كفَّ عنْها! ، إنَّما كانَ يَكفيكِ أن تقولي كما كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ يقولُ: أذْهبِ البأسَ ربَّ النَّاسِ أنتَ الشَّافي لا شفاءَ إلَّا شفاؤُكَ شفاءٌ لا يغادرُ سَقَما]، قال الإمام محمد [كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك] "باب الإستعاذة".

وخلاصة المسألة: أن الله "خلق" الخلق، ووضع "الشرع" و "القدر"؛ وكمال التوحيد بالتسليم له في ذلك كله، قال إبن رجب [فمن حقق اليقين: وثق بالله في أموره كلها ورضي بتدبيره له، وإنقطع عن التعلق بالمخلوقين، ومنعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة] "جامع العلوم والحكم: 18/2".

(2) من عظيم فقه إخوان من طاع الله رحمهم الله تفسيرهم قوله تعالى {قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق} أنه إستعاذة من الشرك والبدع والمعاصي إذ هي شر ما خلق الله!

(ثانيا: الأسباب الصحيحة "الرقى")

7- [باب ما جاء في الرقى والتمائم]

بنية الباب :-

بين المصنف رحمه الله في هذا الباب أحوال التداوي ومرتبة كل واحد منها :

- **الحال الأول/** الأدوية الصحيحة: وهي "الرقى" الخالية من الشرك، و "الأسباب الصحيحة"، وهو من كمال التوحيد.
- **الحال الثاني/** الأدوية الباطلة: وهي "الرقى الشركية" و "الأسباب الباطلة"، وهي شرك أكبر أو صغر بحسبه.
- **الحال الثالث/** الأدوية المشكوكة: وهي ما خلت من الشرك ولكن لم يقطع بصحة كونها سببا، وتركها من كمال التوحيد.
- **الحال الرابع/** التعلق بالأسباب الصحيحة: وهو شرك أصغر، ولذلك نبه عليه المصنف وذكره في الباب رغم كون التداوي في الأصل مشروع صحيح السببية.

وصور التداوي كلها لا تخرج عن هذه الأربعة، وتكون درجة كل صورة منها بحسب قربها من أحد هذه الأحوال.

نكتة (1)/ التداوي :-

هذه المسألة مبناها على "قاعدة الأسباب" وكون ما صح منها فالأخذ به من كمال التوحيد، وقد ذكر الله التداوي في مواضع من كتابه، وسمى نفسه (الشافي) جل في علاه فمن الإيمان بهذا الإسم طلب التداوي بما جعله الله من أسبابه، وفي الحديث [ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله] رواه البخاري، وقد أثنى الله على عيسى بن مريم عليه السلام بعلم الطب {يبرئ الأكمه والأبرص} وجعل ذلك من كمال منزلة نبوته التي هي أعلى مراتب التوحيد: لأنه علم بـ"القدر" الذي هو فعل الله، كما أن "الشرع" هو قوله جل في علاه؛ فكان الجمع بينهما أعلى مقامات العلم به وتوحيده! ،قال الإمام الشافعي [إن العلم علمان علم الين وعلم النيا: فالعلم الذي للدين هو الفقه، والعلم الذي للدنيا هو الطب]، وقد أفرد الأئمة المصنفات الكثيرة في علم (الطب النبوي) وعدوه من شمائل رسولنا عليه الصلاة والسلام الكاشفة عن كمال إحسانه.

وقد تداوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أصابه بذلك، وعده عمر بن الخطاب من الإيمان بالقدر فقال [نفر من قدر الله إلى قدر الله] البخاري، أما ما روي عن بعض السلف من تركهم التداوي فإن ذلك لا تنقض به الأثول وتعارض النصوص بل يلتمس له أحسن المخارج، فمن ذلك:-

- كون بعضهم تركه لما أيقن حلول الأجل وعدم رجاء الإنتفاع: فإن طلب الدواء والحالة هذه يكون نقصا في كمال التوحيد لأن السبب صار ضعيف في حقه.
- كون بعضهم تركه لما رأى إلتفاتقلبه إليه وتعلقه به وهجوم ذلك عليه مع عجزه عن مدافعته: والدواء الصحصح متى تعلق به قلب العبد وإلتفت إليه صار مخلا بكمال التوحيد.

وقد عد بعضهم بضعة عشر وجها لترك بعض السلف التداوي، والقصد أن هذه الأحوال الخاصة لا تعاب على أهلها كما أنها لا تنقض بها الأصول بل يوفق بين هذا وذاك ويعرف للسلف فضلهم وعظيم فقههم وكمال توحيدهم {ثلة من الأولين وقليل من الآخرين}.

فائدة: يقول أهل الطب أن تعلق المريض بالدواء الضعيف أو في عند من لا يرجى شفاءه مضعف للبدن معجل بهلاكه، وأن المريض الذي إذا يئس من الإنتفاع بالدواء تركه ولم يتعلق به يفسح له في أجله ويزداد قوة في بدنه ويكون تركه للدواء أبقى عليه .. والتوحيد لا يأتي إلا بخير!.

مسألة: يدخل في التداوي المخل بالتوحيد (التداوي بالمحرمات) القطعية التي لم يبحها الشرع في حال سعة ولا ضرورة وإن كان يحصل بها الإنتفاع إذ المعدوم شرعا كالمعدوم حسا، والتداوي بها مع العلم بحرمتها علامة تعلق القلب.

- أمثلة :-

	تنديد	تعلق	إلتفات	غفلة
يقين	**السحر**	**النشرة**		**الكي**
شك		**التولة**		**الدواء الذي لا يرجى نفعه**
بطلان	**دعاء غير الله**	**التمائم**	**الأدوية الباطلة السببية (الخرافات)**	**ترك التداوي الصحيح**
	شرك أكبر	**شرك أصغر**	**البدع**	**نقص الأدب**

نكتة (2)/ الرقية والتميمة:-

الرقية :-

خلق الله السماوات والأرض وجعل لها سننا وأنظمة وقدر لهذه الأنظمة الكونية مفاتيحها، فمن هذه المفاتيح [الكلام] فإن الله جعل منه ما يؤثر في الكون تأثيرا حقيقيا، فمن ذلك :-

- قوله تعالى {قال الذي عنده علم الكتاب انا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك} قال مجاهد [تكلم ذلك العالم بكلام فدخل العرش تحت الأرض حتى خرج إليهم]، وقوله في الآية "علم الكتاب" يدل على كونه علم خاص وسر من أسرار الكون كشفه الله له وليس هو مجرد الدعاء ولذا قال إبراهيم عليه السلام [{ليبلوني أأشكر أم أكفر} إذ رأيت من هو دوني في الدنيا أعلم مني] رواه إبن عباس.
- وفي خبر هاروت وماروت قالت المرأة للملكين [أخبراني بالكلمة التي إذا قلتماها طرتما؟ فأخبراها فطارت فمسخت جمرة وهي هذه الزهرة -الكوكب-] قال الإمام محمد في تفسيره [الحادية والخمسون/ أنه لا ينبغي للإنسان أن ينكر ما لم يحط به علمه، فقد ضل بالتكذيب بهذه القصة فئام من الناس لظنهم أنها تخالف ما علموه من الحق] "مجموع مؤلفات الإمام محمد: 25/5".
- وجزء كبير من علم "الفراسة" قائم على الكلمة.
- ومثله السحر قال كعب الأحبار [لولا كلمات أقولهن لقلبتني يهود حمارا] فالسحر كلمات قد تقلب الأعيان وتدفعه كلمات -الأذكار-، ومن تأثير الأذكار في أعيان الأشياء أن خالد بن الوليد رضي الله عنه شرب السم بعد ذكر اسم الله عليه فلم يضره، والتسمية تؤثر في عين الذبيحة فتجعل اللحم طاهرا أو نجسا، والطلاق كلمة تصبح بها زوجة الرجل أجنبية عنه.
- وحين ألقي إبراهيم عليه السلام في النار قال "حسبي الله ونعم الوكيل" فإنقلبت النار عليه بردا وسلاما، وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام [إذا رأيتم النار فكبروا فإن التكبير يطفئه] ولإبن القيم شرح لهذا الحديث في "زاد المعاد" في كلامه عن (العلاج بالأدوية الروحية).
- وللمقريزي خبر عجيب في رفع الأثقال بالكلمات تجده في "الغرف العلية في طبقات متأخري الحنفية : 966".
- ويزعم أهل الزراعة أن الكلام يؤثر في الأشجار وثمارها ولهم في ذلك أخبار وألف بعضهم في ذلك.
- قال إبن حزم [وقد شاهدنا وجربنا من يرقي الدمل الحاد القوي الظهور في أول ظهوره فييبس ويبدأ من يومه ذاك بالذبول ويتم يبسه في اليوم الثالث ويقلع كما تقلع القشرة إذا تم يبسها جربنا من ذلك مالا نحصيه، وكانت هذه المرأة ترقي أحد دملين قد وقعا على إنسان واحد ولا ترقي الثاني فييبس الذي رقت ويتم ظهور الذي لم ترق ويلقى حامله منه الأذى الشديد، وقد أخبرنا من خبره عندنا كمشاهدتنا لثقته وجريبنا لصدقه وفضله أنه شاهد ما لا يحصى نساء يتكلمن على الذي يمخضون الزبد من اللبن بكلام فلا يخرج من ذلك اللبن زبد] "فوائد إبن حزم:166" لإبن عقيل، وحين لُعن طعام عند بعض السلف أراقه ولم يطعمه لعمق علم السلف بتأثير الكلام على الأعيان وقد روى إبن أبي شيبه في مصنفه في (باب لعن البهيمة) عن النبي عليه الصلاة والسلام [دعوها فإنها ملعونه] قال عمران بن حصين: فكأني أراها تجول في السوق ما يعرض لها أحد.

والقصد أن "الكلام" سبب من الأسباب فـ(قاعدة الأسباب) تجري عليه: فمنه الصحيح المشروع كالرقية، ومنه الصحيح الممنوع كالسحر، ومنه الباطل كدعاء غير الله.

والرقية: كلام يُتداوى به يؤثر في الأعيان، فهي نوع من الطب ومن هنا سمت العرب الطبيب "راقي"، ولما كان العرب أعظم الأمم عناية بالكلمة كانوا أبرع الناس في طب الرقى، وقد أقر الإسلام العرب على رقاهم فقال عليه الصلاة والسلام [اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقية ما لم تكن شرك] فالأصل في الرقى المشروعية لأن الرقية من باب التطبب لا من باب التعبد فمبناها على التجريب لا على التوقيف قال الإمام الشافعي [يرقي بكتاب الله، أو بما يُعرف].

تنبيه: من زلات الطب المعاصر حصره التداوي في الأدوية المخبرية، والأمر أوسع من ذلك فكم من دواء ثبت نفعه وجهل الأطباء على ذلك منه وعجزت المختبرات عن تفسيره، والشرع يوسع باب التداوي بكل ما **جُرب ونَفع** إن **خلا من الشرك أو البدعة أو الحرام**، والسبب في النظرة القاصرة للدواء اليوم أنها بنيت على المدرسة الطبية الغربية وحدها دون غيرها من مدارس الطب ولذلك كانت النظرة الطبية المعاصرة محدودة قال إبن القيم [وهذا كما تقدم أن أدوية غالب الأمم

والبوادي هي "الأدوية المفردة" وعليه أطباء الهند، وأما الروم واليونان فيعتنون بـ"المركب"؛ وهم جميعا متفقون على أن مهارة الطبيب : أن يداوي بالغذاء، فإن عجز فبالمفرد -الطبيعي-، فإن عجز فما كان أقل تركيبا.

وقد تقدم أن غالب عادات العرب وأهل البوادي "الأمراض البسيطة" فالأدوية البسيطة تناسبها وهذا لبساطة أغذيتهم في الغالب، وأما "الأمراض المركبة" فغالبا ما تحدث عن تركيب الأغذية وتنوعها وإختلافها فإختيرت لها الأدوية المركبة، والله أعلم] "زاد المعاد".

وعليه ففي (طب الرقية) إذا كان المرض مركبا إحتاج إلى دواء مركب: فإذا كان أذى الشيطان روحي وبدني كان من كمال الرقية إشتمالها على أدوية (طب الأبدان) وعدم إقتصارها على الرقية الكلامية، ومن هنا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإبراد الحمى بالماء مع إخباره أنها من فيح جهنم ولكن لما كان أثرها على البدن ناسبها الدواء البدني وإن كان سببها روحي، ومثل ذلك الوضوء من الغضب لأن الماء يطفئ نار الشيطان والغضب منه.

وفي الحديث [نعوذ بالله من همزه ونفخه ونفثه] أبو داود: فـ"النفخ" تسلط الشيطان على المزاج والخُلُق وأعظمه الكبر وكذلك الحزن والغضب والخوف، و"النفث" تسلطه على الروح وأعظمه السحر والوسوسة، و"الهمز" تسلطه على البدن وأعظمه القتل والجنون و سائر الأمراض البدنية؛ فما كان من الأمراض تسلطا روحيا محضا نفعت فيه الرقية وما كان من ذلك تسلط على الروح والمزاج إحتاج مع الرقية الكلامية ما يناسبها من أدوية المزاج كالحكم والأشعار والمسامرات ومخالطة الناس والبعد عن الإنفراد ونحوها، وما كان تسلطا مع ذلك على البدن إحتاج إلى أدوية طب الأبدان .. وكل ذلك من الرقية.

وبذلك تعلم أن المعارضة بين أنواع التداوي وجعل إثبات وجود المرض البدني ينفي وجود التسلط الشيطاني او العكس أنه فعل الجهال وأنه من الإقتصار على الأدوية المفردة للأدواء المركبة، فوجود الأثر البدني لا ينفي السبب الروحي ووجود المرض الروحي لا يعارض أخذ الدواء البدني بل يجمع بين أنواع التداوي بما يناسب كل مرض ومعلوم أن الدواء كلما كان أنسب للمرض كان أقوى أثرا وأعجل نفعا.

وإعلم أن كل "كلام" يداوي الأمراض الروحية أو البدنية أو المزاجية فهو (رقية)، قال عليه الصلاة والسلام [لا رقية إلا من عين أو حمة] أي لا رقية أنفع من رقية "العين" التي هي سم الأرواح و "الحمة" التي هي سم الأبدان، قال إبن القيم وي وصف العائن [يجد الشرير من الناس راحة ولذة في إيصال شره إلى من يصل إليه، وكثير من الناس لا يهنأ له عيش في يوم لم يؤذي فيه أحدا من بني جنسه، ويجد في نفسه تأذيا بحمل تلك السمية والشر الذي فيه حتى يفرغه من غيره فيبرد عند ذلك أنينه وتسكن نفسه] "مدارج السالكين" .

واشهر رقى العرب للأبدان: الرقية من ذوات السموم وفي الحديث [وما أدراك أنها رقية]، قال الشاعر يصف حية:

تناذرها الراقون من سوء سمها

فتطلقه حينا وحينا تراجعه

وأشهر رقاهم للأرواح: الرقية من العشق ويسمونها (السلوانة) لأنها تسلي العاشق عن معشوقته قال عروة بن عزام:

جعلت لعراف اليمامة حكمه

وعراف نجد، إن هما شفياني

فقالا: نعم نشفي من الداء كله

وقاما مع العواد يبتدراني

فما تركا من رقية يعرفانها

ولا "سلوة" إلا وقد سقياني

وقال آخر:

ولقد سقوني "سلوة" فكأنما

قال المداوي للخبال بها: إزدد

وآخر سقوه فسلى فقال يدعو على من سقاه:

يقوني "سلوة" فسلوت عنها

سقى الله المنية من سقاني!

وأشهر رقاهم للأمزجة: الرقية من البخل ويرقونها بـ(الأشعار) و (الأخبار) في الكرم، وقد كتب معاوية رضي الله عنه إلى زياد في إبنه [ما منعك أن ترويه الشعر؟، فوالله إن العاق ليرويه فيبر، وإن البخير ليرويه فيسخو، وإن الجبان ليرويه فيقاتل] ، قال ابو العتاهية في عمر بن العلاء لما نزل عليه ومدحه بقصيدة فأرجأه وكان ينتظر مالا يأتيه من وجه فأبطأ عليه فكتب إليه أبو العتاهية:

أصابت علينا عينك الجود يا عمر

فنحن لها نبغي التمائم والنشر

أصابتك عين في سخائك صلبة

ويا رب عين صلبة تفلق الحجر

سنرقيك بـ"الأشعار" حتى تملها

فإن لم تفق منها رقيناك بالسور

فلما قرأها ضحك وقال لصاحب بيت ماله : كم عندك؟ قال: سبعون ألف درهم، قال : إدفعها إليه وإعذرني عنده ولا تدخله عليه فإني أستحيي منه.

وقال المتنبي وهو يمدح كافور يرجوا أن يعطيه ولاية:

وشعر مدحت به الكركدن

بين القصيد وبين الرقى

لطيفة: [شكى الناس إلى التقي إبن تيمية رجلا ثقيلا بذيئا سكن في خطتهم فسأل عن داره فدُل عليها، فلما وقف أمامها قرأ {ثم إنصرفوا صرف الله قلوبهم} سبعا، وقرأ {ذهب الله بنورهم}؛ فلم يمض يوما إلا وقد إنتقل بعيدا] "الإختيارات المرضية لإبن طولون".

والقصد: أن الرقية مفهوم واسع وليس هو الصور المحدودة المعروفة عند أكثر الناس اليوم، بل هو كل علاج بكلام، ويلحق بذلك بعض صور الطب النفسي الحديث.

والأصل في الرقية أنها "الكلام" إلا أنه قد يُضم إليها مع الكلام أمورا حسية كالماء والزيت والتربة والعقاقير وغير ذلك فتصبح الرقية (مركبة) ، وهذه الأمور التي تزاد في الرقية الكلامية هي من جملة الأسباب فتجري عليها قاعدة الأسباب : فما كان منها سببا ظاهر السببية كان مشروعا، وما كان منها او ضعيف السببية فتركه من كمال التوحيد، وما كان منها باطلا من جهة التجربة او من جهة النصوص فهو الشرك وإن حصل به الإنتفاع كالسحر.

والأصل في الزيادات الحسية على الرقية الكلامية عدم التوسع لأمرين:

1- أن (طب الرقية) في الأصل هو علم التداوي بالكلام فما زاد عن الكلام فالأصل عدم دخوله فيه وإنما هو داخل في أنواع الطب الأخرى.
2- أن النصوص التي جاءت في التوسعة في باب الرقية إنما جاءت في (الكلام) كقوله عليه الصلاة والسلام [إعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقية ما لم تكن شرك].

التمائم:-

وهي في الاصل خيط مرقي، والعرب تسميها تميمة لأنها تزعم أنها تُتِم نفع الرقية وتثبت أثرها، وهي سبب باطل بالنص والحس ولذلك كانت شركا.

فائدة: كانت العرب تسمي الكهان والمشعوذين الذين يصنعون التمائم بـ"المنجسة" لأنهم كانوا يعلقون الخرق النجسة على الصبيان دفعا للعين؛ ونجاستها الشركية أشد من نجاستها الحسية قال تعالى {إنما المشركون نجس}.

وسبب تعاطي العرب للتمائم هو كون "الكلام" قوة أثره في الجملة روحية فإذا أريد نقل هذا النفع إلى البدن احتيج إلى سبب محسوس يتم هذا النفع للرقية.

وهذا معنى صحيح في نفسه إلا أن "التميمة" سبب ثبت بطلانه بالنص والحس، وقد أعطانا الشرع بديلا عن هذا السبب الباطل أسبابا صحيحة: كالنفث والمسح، وشرب الماء المرقي والإغتسال به، والزيت، والتربة، وغيرها مما ثبت بالنص او الحس، والحس هنا ليس هو عموم التجربة وإنما هو ما كان علة نفعه حسية إذ السحر مجرب أثره وليس هو بسبب حسي فتنبه.

مسألة: يزعم أهل الطب أن عندهم أساور تؤثر في البدن فما حكم إستعمالها وهل هي تميمة؟

نقول: ما كان منها سببا ظاهر السببية قد عرف النس وجه نفعه جاز إستعماله ولم يكن تميمة شركية، ومن نظائر ذلك عند العرب "الرتيمة" وهي خيط كانوا يعقدونه في أصابعهم إن أرادوا إستذكار شيئا فيجعلونه علامة عليهم، قال الشاعر:

إذا لم تكن حاجاتنا في نفوسكم

فليس بمغن عنك عقد الرتائم

مسألة: ما حكم تعليق المصحف لرفع البلاء أو دفعه وهل هو سبب صحيح ظاهر؟

اختلف في تعليق المصحف كما بين المصنف رحمه الله، والذي يظهر أن تعليق المصحف لا يدخل في الرقية كما أن حفظ الحافظ لا يعد رقيه ما لم يقرأه على نفسه أو غيره.

ومن رخص فيه من السلف فالغالب في كلامهم ترخيصه للصبيان لعجزهم عن قراءة القران مع حاجتهم للرقية والتحصين فرخص لهم بعض السلف تعليق القرآن للحاجة، ومعلوم أن الضرورة تقدر بقدرها فلا ينبغي أن يتجاوز بها ذلك الحد، والذي يظهر أن المصنف رحمه الله يذهب إلى عدم الرخصة فيه ولو للصبيان كما هو قول إبن مسعود رضي الله عنه وأصحابه.

وإعلم أن الخلاف إنما وقع في التعليق على جهة الرقية <u>بعد وقوع المرض</u> لا قبله قال الإمام مالك [لا بأس بتعليق الكتب على أعناق **المرضى** على وجه التبرك بها إذا لم يرد معلقها بتعليقها مدافعة العين] "جهود علماء المالكية في تقرير توحيد العبادة: 491"، وأما ما يعلق قبل وقوع المرض فإنه ليس برقية بلا خلاف فهو تميمة قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها [التميمة ما علق قبل نزول البلاء لا بعده] رواه البيهقي والحاكم.

فائدة: فرق بين <u>تعليق</u> المصحف وكتابة الآيات على بدن المرقي أثناء الرقية او كتابتها على ورقة وغمسها في الماء وشربه، إذ ذل ذلك من جنس الرقية وهو ظاهر في الإسترقاء بخلاف التعليق والعرب تقول [القلم أحد اللسانين].

لطيفة: مما قيل في سبب تسمية القصائد السبع الطوال المشهورات بـ(المعلقات) أنه كان من عادة نساء العرب أن يتخذنها قلائد يتعلقنها تزينا بها تعظيما لها وإبصارا لجمالها، والمشهور أنها إنما علقت في الكعبة فسمية بالمعلقات.

ولعله من ذلك أخذ كثير من الناس تزيين مجالسهم بتعليق بعض الآيات والسور فيها، وهذا وإن كان لا يدخل في باب التمائم -ما لم يعتقد فيها السببية- إلا أنه من "نقص الأدب" المنقص لكمال التوحيد.

مسألة مهمة: أثر الرقية ونفعها يرجع إلى قوة نفس الراقي وعزمه في رقيته لا لصلاحه ضرورة، إذ كما سبق أن هذا الباب في الأصل من أبواب الطب لا التعبد ومن هنا كان لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها جارية يهودية ترقيها بالقرآن**!**، ومن فقه العرب في هذا الباب قول الشاعر يرثي المغيرة بن شعبة :

إن تحت التراب عزما وحزما

وخصيما ألد ذا معلاق

حية في الوجار أربد

لا ينفع السليم منه نفث الراقي

فبين أن الرقية في حقيقتها مدافعة بين عزم الراقي والمرقي منه، فأيهما كان أشد عزما وأقوى نفسا كانت له الغلبة، ولذلك سمت العرب الرقية "عزيم" لأن الراقي يعزم على الداء أن يخرج من البدن، فإن إجتمع مع <u>قوة النفس</u> كون <u>الكلام الذي يرقي به عظيما</u> في نفسه كالقرآن والدعاء النبوي ورقى السلف كان إنتفاع المرقي أعظم وشفاءه أسرع.

لطيفة: روى إبن أبي الدنيا عن الوليد بن مسلم [أن رجلا عند شجرة سمع فيها حركة، فتكلم فلم يُجَب، فقرأ آية الكرسي فنزل إليه الشيطان، فقال: إلينا مريض فبم نداويه؟ قال: بالذي أنزلتني به من الشجرة**!**] "لقط المرجان: 150".

فائدة: من أعظم ما يرقى به كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وفي الحديث [لو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن "لا إله إلا الله" و "سبحان الله وبحمده" فإن بها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق]، قال سفيان الثوري [ليسشيء أقطع لظهر إبليس من قول (لا إله إلا الله)] "سير أعلام النبلاء: 260/7" ،قال أبو الجوزاء [والذي نفسي بيده إن الشيطان لازم بالقلب ما يستطيع صاحبه أن يذكر الله عز وجل إلا من طرد الشيطان من قلبه بـ(لا إله إلا الله)، ثم قرأ {وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا}] "موسوعة إبن ابي الدنيا"، ورقى بعض أهل العلم رجلا ممسوسا في الرياض فكان مما قالت الجن على لسانه أن الشيخ إبن باز رحمه الله كان إذا قال (لا إله إلا الله) ضاقت على الجن أرض الرياض كلها! وذلك لإجتماع عظم الكلمة وقوه يقين قائلها وعزمه فيها خلافا للشاك والمتردد، بل إن هه الكلمة العظيمة لقوة تأثيرها لا تزال رقية عند نصارى الأسبان إلى يوم الناس هذا أخذوها عن مسلمي الأندلس فبقيت فيهم طبا شعبيا يسترقون بها وهم ولا يفهمون معناها.

(ثالثا: الأسباب المشتركة "التبرك")

8- [باب من تبرك بشجرة أو حجر أو نحوهما]

بنية الباب :-

تعرض المصنف في هذا الباب إلى مسألة هي من أشكل المسائل وهي (التبرك) الشركي، فبين أنه نوعان:-

1 - **الآية:** فيما كان منه شركا أكبر.
2 - **الحديث:** فيما كان منه شركا أصغر.

نكتة (1)/ معرفة حقيقة شرك المشركين:-

قال الإمام محمد [إذا عرفت أن الله خلقك لعبادته فإعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة.

فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهى الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} ، وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه :-

-وذكر منها- **القاعدة الثالثة:** أن النبي صلى الله عليه وسلم ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم، منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفرق بينهم] ثم ذكر حديث الباب فيما ذكر من أدلة على صور شرك المشركين، فالتبصر بشرك المشركين من أهم المهمات ليحفظ الإنسان توحيده وذلك أن عامة خلل الناس إنما يقع من جهلهم بتنوع صور الشرك وإختلاف أحوال أهله قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه [إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية]، قال إبن القيم [فإن الشرك الجديد هو القديم ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه

له، ويظنونه في نوح وفي قوم قد خلو] "مدارج السالكين"، فكلما كان المرء بأحوال أهل الباطل أبصر كلما كان لها أحذر وعنها أبعد قال إبن تيمية [أنا أعلم كل بدعة حدثت في الإسلام، وأول من إبتدعها، وما كان سبب إبتداعها] "الفتاوى: 184/3".

ولا تتم معرفة العبد بالتوحيد حتى يعرف نقيضه ليحذره، ومن هنا قال تعالى {إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} فأتبع ببان الحق بقوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) لبيان أحوال أهل الباطل وصور باطلهم الذي هم عليه ليزداد العبد بالحق تبصرا بمعرفة ما يخالفه، ومن عبقرية الإمام محمد رحمه الله أنه بنى كتابه على هذا الأصل العظيم حيث قال في خاتمة الأبواب التأصيلية للتوحيد [وشرح هذه الترجمه ما بعدها من الأبواب] ثم وضع سائر أبواب الكتاب في بيان أنواع الشرك وصوره وجعل ذلك كله شرحا للتوحيد!.

والإمام محمد رحمه الله من أشد الماس عناية بهذا الأصل وله في كتبه المقارنات البديعة بين شرك المشركين الأوائل وشرك أهل زمانه كما في "كشف الشبهات" و "القواعد الأربعة" و "ست مواضع من السيرة"، ولشدة عنايته رحمه الله بهذا الباب أفرده برسالته النفيسة [مسائل الجاهلية].

والقصد أن الشرك له صور كثيره وليس هو محصور في السجود للأصنام كما يظنه الجهال بل هو أعم من ذلك وأخطر ولذا قال حذيفة رضي الله عنه [ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يعلم] "السنة للخلال"، قال الشيخ حمد بن عتيق [فإن كثيراً من الناس قد ظن أنه إذا قدر على أن يتلفظ بالشهادتين، وأن يصلي الصلوات الخمس، ولا يرد عن المسجد، فقد أظهر دينه وإن كان مع ذلك بين المشركين، أو في أماكن المرتدين، وقد غلطوا في ذلك أقبح الغلط.

فاعلم أن الكفر له أنواع وأقسام تتعدد بتعدد المكفّرات، وقد تقدم بعض ذلك، وكل طائفة من طوائف الكفران، اشتهر عندها نوع منه، ولا يكون المسلم مظهرًا لدينه حتى يخالف كل طائفة بما اشتهر عندها، ويصرح لها بعداوته والبراءة منه] إلى آخر كلامه النفيس في "سبيل النجاة والفكاك".

فمن صور الشرك التي كانت عند المشركين الأوائل (التبرك البدعي)، والبركة حقيقة أقرها الشرع ومعناها الفضل وكثرة الخير، إلا أن العبد في هذا الباب لا بد له من نظرين ليكون تبركه شرعي:-

1- إثبات كون هذا الشيء مباركا.
2- إثبات سبب صحيح لإنتقال هذه البركة وحصول الإنتفاع بها.

وقد جعل الله لكل بركة أسبابا صحيحة فمن طلب البركة من غير أسبابها الصحيحة فقد أشرك على ما سبق تقريره في (قاعدة الأسباب)، فالعسل مثلا مبارك وتحصيل هذه البركة منه يكون بتناوله والتداوي به قال تعالى {يخرج من بطونها شرابا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس}، ومكة المكرمة أرض مباركة وتحصيل بركتها بعمارة البيت بالصلاة والطواف والحق قال تعالى {وأن طهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود} فإن الصلاة فيه بمئة ألف صلاة في غيره بركة من الله وفضلا، والأولياء والصالحون مباركون وتحصيل بركتهم يكون بالإنتفاع بعلومهم والتأسي بمكارم أخلاقهم والنظر في سيرهم وأخبارهم فإن أبراهيم عليه السلام حين سأل ربه {وإجعلني مباركا} أجابه الله {إني جاعلك للناس إماما}، وأما طلب تحصيل هذه البركة بالأسباب الباطلة فهو بدعة شركية قال الطيالسي [مسحت يدي على أحمد بن حنبل وهو ينظر، فغضب وجعل ينفض يدع ويقول: عمن أخذتم هذا؟!] "سير أعلام النبلاء 225/11".

لطيفة: قال كثير عزة :

خليلي هذا ربع عزة فإعقلا
قلوصيكما ثم إبكيا حيث حلت
ومسا ترابا كان قد مس جلدها
وبيتا وظلا حيث باتت وظلت
ولا تيأسا أن يمحو الله عنكما
ذنوبا إذا صليتما حيث صلت

والقصد أن البركة هي كثرة الخير، فكل شيء يوزن بأقرانه فيفضلهم في كثرة المنافع فهو مبارك، وطريقة تحصيل بركته بإستعماله على وجهه القدري، فإنه بذلك يكون (التبرك شرعيا) .

أما (التبرك البدعي) فهو إستعمال الشيء على خير وجهه القدري، وهو أول منازل الشرك وأول ما إستزل به الشيطان العرب فقد روى محمد بن إسماعيل الكلبي في كتابه النفيس "الأصنام" [أن إسماعيل عليه السلام لما سكن مكة وولد له بها

أولاد كثير حتى ملأوا مكة ونفوا من مكان بها من العماليق ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوت وأخرج بعضهم بعضا، فتفسحوا في البلاد وإلتماس المعاش، **وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يضعن من مكة ضاعن إلا إحتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة]**، قال إبن تيمية [الشرك في بني آدم أكثره على أصلين: الأول/ تعظيم قبور الصالحين وتصوير تماثيلهم للتبرك بها وهذا أول الأسباب التي إبتدع بها الآدميون، الثاني/ عبادة الكواكب] "الرد على المنطقيين: 285".

وفي الحديث الذي ذكره المصنف بيان أن الباب الذي أراد أن يدخل منه الشيطان على من أسلم حديثا من الصحابة بعد الفتح هو باب التبرك**!**.

وبذلك يكون قد إنتهى القسم الثاني من أقسام كتاب التوحيد (شرك التسبب) ويليه القسم الثالث والأخير وهو (شرك التعبد).